

المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية

أ.وقازي عقبة

معهد الحقوق والعلوم السياسية

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله تيبازة

ملخص الدراسة:

تتطرق هذه الدراسة إلى الاسس الفكرية التي قامت عليها المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية في تفسيرها لسلوك الدولة باعتبارها الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية والوقوف على طبيعة تفاعلاتها في النظام الدولي بحثا عن القوة والمصلحة بالوسائل الصلبة وفي مقدمتها القوة العسكرية، وذلك من خلال البحث في التطورات الفكرية لهذه المدرسة (واقعية كلاسيكية، واقعية جديدة، واقعية كلاسيكية جديدة) والتوجهات النظرية التي اتبعتها (واقعية دفاعية، واقعية هجومية) ، لفهم وتحليل العلاقات الدولية.

Abstract :

The major aim of this studies which entitled the "realism school in the internationals relations: " is deeply look and analyze the fundamentals and evolution of realisme thinking.

In realisme school the state is the primary actor in international relations, their power forms of the tangible and intangible determinations or variables to impact the state in the internal level, connecting with specific power (political and ideological building –geographic and economic factors–humanitarian and technological capabilities, military forces...) and concerning the external level it connects with the international strategic environment and the nature of international system.

Lastly; this studies analyses and rereals one of the most important theories of international relations, and their consequences in the strategic thinking (Classical Realism, Neorealism, Neoclassical Realism) and theoretical directions (Offensive Realism, Defensive Realism).

مقدمة:

الواقعية هي توجه نظيري قام برفض المبادئ الأخلاقية والقانونية التي طرحها المثاليون، وركز على مبادئ براغماتية ناشئة عن نظرة تشاؤمية لواقع وطبيعة الظواهر السياسية والدولية، إذ لا يوجد تناسق وانسجام في المصالح (Harmony of Interest) بين الوحدات السياسية في المجتمع الدولي، بل هناك تضارب بينها يصل إلى درجة اندلاع الحرب. فالعلاقات الدولية هي صراع قوة ومن أجل القوة (Struggle of Power and for power) والإمكانات المتوفرة للدولة تلعب دورا هاما في تحديد نتيجة الصراع الدولي وقدرة الدولة على التأثير في سلوك الآخرين، شريطة إدراك أن قدرات الدولة لا تقتصر على الإطلاق على الجانب العسكري فقط؛ بل تشمل متغيرات أخرى كالعوامل الجغرافية والموارد الطبيعية والتجانس السكاني والتطور التقني وطبيعة الإيديولوجية والقيادة السياسية.⁽⁴⁰⁾

ويمكن تحليل أهم أفكار المدرسة الواقعية من خلال التطرق إلى أهم نظرياتها المتمثلة في:

I. الواقعية الكلاسيكية Classical Realism:

ترجع الجذور التاريخية للواقعية الكلاسيكية إلى الفلسفة السياسية القديمة عند كل من المفكر الهندي "كوتيليا" (Kautilya 312-296 ق.م) والمفكر الإيطالي "نيكولوماكيافيلي" (Nicollo Machiavelli 1469-1527م) والفيلسوف الإنجليزي "توماس هوبز" (Thomas Hobbes 1588-1679) وهي فلسفة قائمة على اعتبار الصراع من أجل القوة دافع غريزي كامن في الطبيعة الإنسانية.⁽⁴¹⁾

ومن جهة أخرى يرى كل من "بول فيوتي ومارك كوي" (Paul R Viotti and Mark V Kauppi أن المؤرخ اليوناني "توسيديس" (Thusydidies هو أول من كتب في الواقعية التقليدية إذ يعتبر كتابه الحرب البيلوبونيزية Peloponnesian War أشهر عمل عرض فيه حسب - التسلسل الزمني - 21 حربا ولمدة 28 سنة بين أثينا وسبرتا SPARTA في القرن الخامس قبل الميلاد، وتوصل إلى أن الخوف هو الخاصية المسيطرة والعامل الدافع نحو سباق التسلح والحرب.⁽⁴²⁾

وقد ظهرت الواقعية الكلاسيكية في العلاقات الدولية في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى عن طريق كتابات كل من "إدوارد هالت كار" Edward Hallet Carr؛ و"هانس جوشيممورغانثو" Hans Joachim Morgenthau، إذ تطرق الأول في كتابه أزمة العشرين سنة 1919-1939 The Twenty Years Crisis لتفسير الأسباب العميقة للأزمات الدولية الحديثة وتوصل إلى أن السياسة تحت أي معنى ما هي إلا سياسة قوة نابعة من الطبيعة البشرية.⁽⁴³⁾ أما "مورغانثو" صاحب كتاب السياسة بين الأمم "كفاح من أجل القوة والسلم" Politics among Nations : The Struggle for Power and Peace فقد أورد في كتابه ستة مبادئ أساسية تركز عليها هذه النظرية وهي:⁽⁴⁴⁾

1. تعتقد الواقعية السياسية أن السياسة تحكمها قوانين موضوعية تجدد جذورها في الطبيعة الإنسانية؛
 2. الركن الأساسي الذي يساعد الواقعية في تحديدها لطبيعة السياسة الدولية هو مفهوم المصلحة المعرف بمعنى القوة؛
 3. الواقعية لا تعتبر مفهوم المصلحة المعرف بالقوة كمفهوم ثابت في كل الحالات؛
 4. الواقعية واعية بالتوتر الموجود بين الأمور الأخلاقية ومتطلبات الفعل السياسي الناجح؛
 5. الواقعية السياسية ترفض أن تطابق الطموحات الأخلاقية لكل دولة مع القوانين الأخلاقية المتحكمة في الكون؛
 6. الفرق بين الواقعية السياسية والمدارس الأخرى حقيقي وعميق.
- وإلى جانب المفكرين السابقين ساهم الكثير من الباحثين قديما وحديثا في تطور النظرية الواقعية في العلاقات الدولية، إذ كان لكتابات عالم اللاهوت البروتستنتي "رينهولدنيور" (1892-1971) الأثر الأكبر على الكتابات الواقعية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ ينطلق من الفكرة الدينية حول الإنسان الملطخ بالخطيئة الأولى المنكر لمحدوديته وقيوده والذي يسعى لزيادة قوته الفردية والجماعية، كما يعتقد "نيكولاس سيكمان" (1893-1943) أن العلاقات بين الدول تمر عبر اتجاهات ثلاثة؛ إذ تتسم بالتعاون

وتسوية الخلافات ومعارضة بعضها البعض، ولكي تضمن الدولة بقائها عليها أن تجعل هدفها الأول في سياستها الخارجية هو الحفاظ على قوتها أو زيادة هذه القوة، ولأن القوة في معناها الأخير تعني القدرة على خوض غمار الحرب فإن الدول تؤكد دائما على أهمية بناء مؤسساتها العسكرية، كما أن الدول تبقى لأنها إما قوية أو لأن دولا أخرى تضمن حمايتها. (45)

ويمكن تلخيص أهم افتراضات الواقعية الكلاسيكية في النقاط التالية:

1. الدولة هي الفاعل الأساسي والوحيد في العلاقات الدولية.
 2. الدولة وحدة موحدة ومندمجة.
 3. عقلانية صانع القرار في اختيار البدائل التي تصب في مصلحة الدولة.
 4. استقلالية الظاهرة السياسية، إذ توصف القضايا السياسية الأمنية بالسياسة العليا High Politics بينما ينظر للقضايا الاقتصادية والاجتماعية على أنها أقل أهمية ويطلق عليها اسم السياسة الدنيا Low Politics. (46)
 5. في نظام دولي تسوده الفوضى وتتصارع فيه الدول مثل كرات البلياردو لتحقيق المصلحة القومية يؤدي توازن القوة دورا مركزيا في تحقيق الاستقرار الدولي.
- أما أهم المفاهيم المعتمدة في أنطولوجيا الواقعية الكلاسيكية فنجد:

1- المصلحة القومية National Interest: وحسب الواقعية مفهوم المصلحة الوطنية محدد في مفهوم القوة، فالمصلحة هي جوهر العملية السياسية، والمحور الذي تدور عليه وتنطلق منه كل مفاهيم العلاقات الدولية، ويرجع "مورغانثو" أهمية المصلحة في التحليل السياسي إلى أنها تمثل الإطار الذي يوجه صانع القرار أثناء صياغة السياسة الخارجية والمقياس الذي نستطيع من خلاله تقييم نجاحها أو فشلها، كما أن مفهوم المصلحة المرادف للقوة هو الذي يعزز استقلالية علم السياسة، فالمصلحة عند رجل الاقتصاد هي الرفاهية الاقتصادية أو دولة الرفاه Welfare State، وعند رجل القانون تتمثل في مدى تطابق السياسات المنتهجة مع القواعد

القانونية، بينما المصلحة عند الواقعي السياسي تتميز بطابع سياسي عسكري وتتعلق بكيفية الحصول على القوة وتعزيزها. (47)

2- القوة Power: بما أن مفهوم القوة مرادف لمفهوم المصلحة، تعتبر الواقعية الكلاسيكية القوة كهدف أساسي؛ يسعى إلى تحقيقه كل صانع قرار على مستوى الوحدة الدولية، فالقوة ليست مجرد وسيلة تستعملها الدولة للتأثير على الوحدات الدولية الأخرى؛ بل هي كذلك غاية وهدف. كما أن التصور الواقعي يميل إلى استخدام أو تبني أساليب القوة الصلبة (Hard Power) بدل التركيز على أساليب القوة اللينة (Soft Power)، وحسب "هانس مورغانثو"، إن سعي الدول لتحقيق القوة يدور حول ثلاثة محاور رئيسية:

أ- الإبقاء أو المحافظة على القوة Keeping Power.

ب- إثناء أو زيادة القوة Increasing Power.

ج- استعراض القوة Demonstrating Power.

وتطبيق هذه المحاور على العلاقات الدولية سيؤدي إلى انتهاج ثلاث سياسات أساسية:

أ- **سياسة المحافظة على الوضع الراهن** The Policy of Status Quo: فإذا كان الوضع الدولي القائم يخدم ويعزز مصالح وقوة الدولة، يستعمل صانع القرار القوة للمحافظة على هذا الوضع.

ب- **الإمبريالية** Imperialism: إذ تقوم الدولة بإحداث تغيير في توزيع القوة على مستوى النسق الدولي بغرض زيادة وإثناء قوتها؛ عن طريق سياسات استعمارية توسعية أو سياسات امبريالية استغلالية.

ج- **سياسة الهيبة** The Policy of Prestige: وهي سياسة تدخل في إطار الردع العسكري عن طريق إظهار القدرات القتالية والعسكرية للدولة، بالقيام بمناورات عسكرية واستعراض الاختراعات والصناعات الحربية لتعزيز هيبتها ومكانتها الدولية. (48)

3- ميزان القوة Balance of Power: بما أن رجل الاقتصاد الإنجليزي "تشارلز دفنانت" Charles Davenant كان أول المفكرين الذين طرحوا فكرة مبدأ توازن القوة سنة

1701، فإن أهميته زادت كمبدأ دولي في معاهدة أوترخت لعام 1713 (UTRECH) وحسب المؤرخ والفيلسوف البريطاني "دافيد هيوم" David Hume فإن مبدأ توازن القوة نشأ من اعتقاد أو إحساس عام بضرورة إحداث توازن بين القوى الدولية من أجل البقاء والحفاظ على الاستقلال. (49)

وحسب "هانس مورغانثو" لجأت الدول منذ معاهدة وستفاليا سنة 1648 لنظام توازن القوى لضمان السلم والاستقرار الدولي، إذ أن أي خلل في توزيع القوة يؤدي إلى الحرب وزعزعة الاستقرار ولتحقيق ميزان القوة تقوم الدول بالتسلح، والتحالف، والتوسع، كما أن الدخول في الحرب يمكن أن يحقق ميزان القوى لبعض الدول.

4- الفوضى Anarchy: نشأت فكرة الفوضى من فكرة الواقعية الإنسانية، ومبدأ التركيز على الدول ذات السيادة كفواعل أساسية في العلاقات الدولية، إذ لا توجد سلطة قانونية فوق قومية والدول تعمل في إطار من المساعدة الذاتية (Self-Help) للمحافظة على النفس. (50)

5- الصراع Struggle: العلاقات الدولية حسب الواقعية الكلاسيكية هي صراع من أجل القوة، إذ تصور الواقعيون الساحة الدولية كطاولة للبياردو، والدول ككرات البياردو باعتبارها وحدات منغلقة تتباعد؛ تتجمع وتتصادم فيما بينها وتسعى كل منها للبقاء على طاولة اللعبة. أي تأمين البقاء القومي في الساحة الدولية، وحسب "مورغانثو" هناك نوعين من الصراع الدولي؛ صراع من أجل الإبقاء على الوضع الراهن، وصراع تنافسي لتحقيق النفوذ والتوسع. (51)

II. الواقعية الجديدة Neorealism:

ظهرت الواقعية الجديدة سنة 1979 من خلال كتاب "كينيث والتز" Kenneth Waltz المعنون بـ "نظرية السياسة الدولية" Theory of International Politics. (52) إذ قامت الواقعية الجديدة بمراجعة الطرح الواقعي الكلاسيكي وتقديمه بطريقة أكثر منهجية وعلمية، إذ اتفق والتز مع معظم الأفكار والمبادئ التي طرحت من طرف الواقعية

الكلاسيكية، فرغم تغير النظام الدولي من حيث الفواعل والمواضيع، لا يزال يتميز بمركزية الدولة، فوضوية النظام الدولي، وأناية الدول التي تسعى دائما لتحقيق القوة والأمن والمصلحة، لكن نقطة الاختلاف الجوهرية بين الطرح الواقعي الكلاسيكي والطرح الواقعي الجديد هو تركيز والتر على النظام الدولي في تفسيره لأناية الدول وفوضوية النظام الدولي التي تتعلق أساسا ببنيتها؛ باعتباره المحدد لسلوك الدولة في النسق الدولي لهذا سميت الواقعية الجديدة بالواقعية البنوية Structural Realism، وإلى جانب "كينيث والتر" تضم الواقعية الجديدة نخبة من المفكرين الذين ركزوا على بنية النظام الدولي أثناء تحليل العلاقات الدولية ومن أبرز هؤلاء "جون ميرشايمر" John Mearcheimer، و"ستيفن وولت" Stephen Walt، و"روبرت جرفيس" Robert Jervis، وحسب أنصار الواقعية الجديدة فإن وجود الفوضى في النظام الدولي يؤدي إلى تبني سياستين أو إستراتيجيتين هما:

أ- الواقعية الهجومية Offensive Realism: وتركز على فكرة أن عدم وجود سلطة مركزية فوق قومية يدفع الدول العظمى إلى تقوية وتعزيز القوة العسكرية وتبني سياسات توسعية فالغموض حول الأهداف المستقبلية ومفهوم "أسوأ حالة" Worst-Case، يؤدي بالدول تبني استراتيجيات هجومية غالبا ما تؤدي إلى الحرب. (53)

ومن أهم أنصار هذا الطرح نجد "جون ميرشايمر"، "روبرت جلبن" Robert Gilpin و"فريد زكرياء" Farid Zakaria، و"وليام وولفورث" William Wohlforth. (54)

ب- الواقعية الدفاعية Defensive Realism: من أهم رواد هذا الاتجاه "كينيث والتر"، و"جاك سنايدر" Jack Snyder، و"ستيفن فان إيفيرا" Stephen Van Evera، و"جيفري تاليفيرو" Jeffrey Taliaferro. (55) الذين يرون أن اعتناق الواقعية الهجومية من طرف بعض الدول يؤدي إلى تعزيز ظاهرة الفوضى الدولية، وأمام هذا المأزق الأمني يقوم صانع القرار بتعزيز أمن وقوة الدولة في مواجهة الدول التي تعتنق الواقعية الهجومية وهذا السلوك ما يسمى بالواقعية الدفاعية.

واعتناق هاتين السياستين يدخل الأمن القومي في لعبة صفرية، لأن إنماء وتعزيز الأمن القومي لدولة معينة سيؤدي إلى تهديد الأمن القومي لدولة أو دول أخرى. أما بالنسبة لموضوع توازن القوة فقد حاول "ستفين والت" إدخال مصطلح جديد هو توازن التهديد The Balance of Threat حيث تسعى الدول إلى تعزيز قوتها، لأن القوة لا تكفي وحدها للمساس بالأمن وإنما هناك معايير أساسية يمكن أن تساعد على معرفة الدول التي تهدد أمن الدولة، كالقدرات والنوايا الهجومية والقرب الجغرافي.⁽⁵⁶⁾ ونتيجة لوجود قوى مهيمنة على الساحة الدولية تلجأ الدول الضعيفة إلى إستراتيجية المسابرة Bandwagoning لتحقيق مصالحها وتفادي الأخطار المحدقة بأمنها القومي.

III. الواقعية الكلاسيكية الجديدة Neoclassical Realism:

هي طرح توفيق بين الواقعية الكلاسيكية والواقعية الجديدة وأول من جاء بهذا المصطلح هو "غيدن روز" Gideon Rose في مقالة عنوانها "الواقعية الكلاسيكية الجديدة ونظريات السياسة الخارجية".⁽⁵⁷⁾

ومن أبرز مفكري هذا الطرح نجد "راندلشويلر" RandelShweller الذي طرح مصطلح توازن المصالح Balance of Interest كبديل للتوازن على أساس القوة أو التهديد، إذ يمكن للدولة أن تدخل في التحالف بمجرد وجود منفعة وليس بسبب وجود قوة تهدد الدولة.⁽⁵⁸⁾ ورغم التطورات الفكرية التي عرفتتها المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية (واقعية كلاسيكية، واقعية جديدة، واقعية كلاسيكية جديدة) والتوجهات التي اتبعتها (واقعية دفاعية، واقعية هجومية) فإن هناك توافق على أن الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية، وأن المصلحة هي المحرك الأساسي لسلوك الدول وتؤدي القوة العسكرية دورا محوريا في تحقيقها، وفي تقييمنا للمدرسة الواقعية نشير إلى تعرضها للعديد من الانتقادات خاصة في إشكالية التحديد الدقيق للمفاهيم المعتمدة كمفهوم المصلحة الوطنية ومفهوم القوة، إذ أن هذه المفاهيم تتغير من دولة لأخرى ومن فترة زمنية لأخرى، إضافة إلى اختزال ظاهرة العلاقات الدولية في الإطار الدولاتي.

ويرى الدكتور وليد عبد الحي أن النظرية التجزيئية (Reductionism) التي اعتمدت عليها نظريات العلاقات الدولية بما في ذلك الواقعية، تتراجع لصالح النظرية الكلية (Holism) على المستويين المنهجي والموضوعي نتيجة التطورات العلمية الحديثة في شتى المجالات. (59) ورغم كل ذلك تبقى الواقعية من أكثر المدارس قوة في العلاقات الدولية.

40- جندلي عبد الناصر، التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية (الجزائر: دار الخلدونية، ط.1، 2007)، ص. 133.

41- جيمس دورتي وروبرت بالاستغراف، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، تر: وليد عبد الحي (الأردن، عمان: كاظمة للنشر والتوزيع، 1985)، ص. 59، 60.

42- عامر مصباح، الاتجاهات النظرية في تحليل العلاقات الدولية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2006)، ص.ص. 121-124.

Dario Battistella, **Théories des Relation Internationales** (Paris: Presses de sciences politique, 2003), p. 114.

Alex Macleod Et Dan O'meara, **Théories des Relations Internationales: Contestation et Résistances** (Québec; Athéna Edition, 2.ed, 2004), p. 38.

45- دورتي و بالاستغراف، مرجع سابق، ص. 63-66.

46- مصباح، مرجع سابق، ص. 153.

47- Macleod et O'meora, op.cit., p. 47.

48- دورتي و بالاستغراف، مرجع سابق، ص. 71، 72.

49- Charles Philippe David et Jean Jaques Roche, **Théories de la Sécurité** (paris: éd. Montchrestien, 2002), p. 47.

50- عبد النور بن عنتر، "تطور مفهوم الأمن في العلاقات الدولية"، **السياسة الدولية**، م 40، ع. 160 (أفريل 2005)، ص. 56-63.

51- مصباح، مرجع سابق، ص. 185، 186.

52- Macleod et O'meara, op. Cit., p. 49.

53- مصباح، مرجع سابق، ص. 231.

54- Philippe David et Roche, op. cit., p. 92.

⁵⁵- Philippe David et Roche, op. cit., p. 93.

⁵⁶-Batistella, op. cit., p. 136.

⁵⁷- Gideon Rose, Neoclassical Realism and Theories of Foreign Policy, **World Politics**, vol. S1, n.1 (octobre 1998), pp. 72-144.

⁵⁸-Loc. cit.

⁵⁹- وليد عبد الحفي، تحول المسلمات في نظريات العلاقات الدولية (الجزائر: مؤسسة الشروق للإعلام والنشر، ط.1994، 1)، ص ص. 12-14.